الصمت الصادح

بقلم الكاتبة الفنلندية: ايفارليس ووريو

ترجمة : ماتيلدا حليم فهمى

تصف ايفارليس‌ووريو مقدرتها اللغوية فى‌هذه الكلمات أتكلم تسع لغات وبعض اللهجات ولا أتكلم احداها صحيحة او على حسب القواعد • ويعزو بعض أصدقائها موهبتهـــا الأدبية ــ على حد قولها ــ الى استعمال آلة كاتبة متعلمة ، واذا كان الأمر كذلك فياحبـــذا لو اقترض كتاب كثيرون هذه الآلة •

ان أسلوبها واضح دقيق وفيه جمال اللغة السهلة •

ولدت ايفارليس ووريو فى فيبورى وهى مدينة قديمة من مدن فنلنده أسوارها عالية وتقع على البحر ، وعاشت فى كندا وانجلترا • نشرت قصتها الصمت الصادح فى صـحيفة ساترداى ايفننج بوست فى عددها الصادر بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٩٦٣ م •

ربما كان العجوز فيسنت من بلدة خومنتيرا أسعد رجل عرفته وربما كان أيضا أشدهم فقرا • كان نحيفا ، مجرد غصن مقوس ، وكان جلده مجعدا وفى لون البن ولم يكن يملك قطعة واحدة من الملابس خالية من الرقع • كان يعيش فى كالابوجـــول فى كوخ من الحجـر وأخشاب لفظتها أمواج البحر والغاب ، أما مطبخه فكان مدفأة حـــديدية أكلها الصدأ ووعاءين مثروخين من الحديدياكل منهما ولكنه كان يملك الى جانب هـــذا جهازا دقيقا للاكسجين‌وزوجا من زعانف المطاط وقناع غطاس •

وكما قلت أعتقد انه لم يكن هناك من هو أسعد منه ٠

ترددت على فومنتيرا عدة مرات قبل أن أتبين فيسنت بين الصيادين الذين كانوا يجرون زوارقهم تحت الأحراش ومخابىء الغاب عند التقاء الشاطىء بالصخور وأخيرا فهمت أنه لا يمكن أن يكون واحدا منهم فلم يكن لديه وقت للصيد ٠

وكنت أعرف شيئا من لهجته الايبيسنكو وهى لغة تختلف تماما عن اللغة الاسبانية فى كاستيل ولذا فهمت يوم رأيته لأول مرة انه يطلب فى وقار لا أثر فيه للذلة أن يقرضه أحدهم زورقا صغيرا من زوارق الصيد ، ولكننى لم أفهم ـ وقد ظننته صيادا ـ كيف يعيش دون أن يكون له زورقه الخاص ، وعرضت عليه زورقى الذى كنت أستأجره فى فومنتيرا فلم أكن استخدمه كثيرا فشكرنى ومرة أخرى لمست فيه ذلك الوقار الذى أحسست به من قبل ، ووقفت أراقبه وهو يحمل الزورق بجهاز الاكسجين وزعانف المطاط والقناع وانا من الفخار للماء ، ولفة صغيرة للزاد ولكنه لم يأخذ معه أية معدات للصيد أو بندقية من النوع الذى يطلق تحت الماء وتساءلت عما ينوى صيده وكيف ، وظللت أراقبه وهو يجدف نحو الأفق وكان يبدو رجلا صغيرا ذا عزيمة جبارة ٠ وظللت أتابعه بعينى حتى لم يعد سوى نقطة صغيرة على الأفق ثم نسيته ٠ وفى كالابوجول من السهل أن تنسى فالمياه الفيروزية عميقة صافية حتى القاع ، والرمال عذراء لم تطأها قدم ، والشاطىء الفضى الأبيض يمتد الى مسافات بعيدة ٠

وفى السنة التى أتحدث عنها كانت الأمور كما أصف وكانت الشمس تسطع باستمرار

وأتى يوم هبت فيه الرياح من افريقيا وكان البحر حارا رطبا فلم يخرج الصيادون الى الماء بل جلسوا فى الحانة الصغيرة على الشاطىء يشربون النبيذ ويتحادثون ٠

ـ هل عاد «فيسنت» ؟

ـ لم يعد بعد ٠

ـ انه مخبول ٠ ان بمقدوره لوثة طفيفة ٠

ـ اطلاقا ٠ ليس الامر كما تقول ٠ انه حسن النية ٠

ـ أتظن ذلك ؟ انك مخبول انت الآخر

ـ أنا ؟ كلا ! أنا أرى وجهة نظره ٠ أنا أفهمه جيدا ٠

فسألت : فيسنت ؟ انه العجوز صاحب معدات الغطس ٠

فصاحوا آه ٠ آها ! آها ! ٠

وطلبت زجاجة ثانية من نبيذ الجزيرة وهو النوع الذى يشرب هناك فلم يكن يجرؤ أحدنا على طلب غيره من الأصناف المعروفة ٠ وفى جلستنا هناك ـ والريح الافريقية تهب وتقلب ماء البحر حتى غدا قاعة فى لون الطين وعلا الزبد سطحه ـ سمعت قصة فيسنت ٠

كان صبيا طموحا منذ ستين عاما فهجر جزيرته الصغيرة ، ولكن منذ ستين عاما لم يكن للاسبانى عمل يرتزق منه فى وطنه اسبانيا فذهب الى البحر على ظهر البواخر الاجنبية ٠ وعاد بعد

مدة وأخذ يطوف البلاد ويمارس مختلف الحرف حتى انتهى به الامر كما انتهى برجال خير منه بأن عمل حمالا على رصيف ميناء برشلونة كانت له آمال واحلام ولكن الاحلام تخذل صاحبها أحيانا فحمل فيسنت أمتعة الآخرين ، أمتعة الأسبان الأغنياء والزائرين والسائحين ووصل به الحال منذ عشر سنوات الى الوقوف على رصيف الميناء والأرقام على قبعته باوح بيده لركاب البواخر ويشير الى نفسه هاتفا انا ؟ أنا ؟ رقم ثلاثة وسبعين ؟ .

وفى ذات يوم رأى امريكى غنى على باخرة من بالما ويده يلوح بها بعصبية فناداه ووقف فيسنت فى الصف مع بقية الحمالين وشق طريقه عنى سلم الباخرة البيضاء وهناك قال له الامريكى .

اليك ستة حقائب وهذا الشيء . احرص عليه فانه تحفة نادرة . وعرف فيسنت للتو نوع الوعاء . كان ابريقا فينيقيا ذا أذنين يسمى أمفورا دقيق الصنع وكان عينة نادرة من الأباريق الكبيرة التى تستعمل فى نقل الخمر أو الغلال وكان الصيادون يجدونها قديما فى شباكهم وكثيرا ماكانوا يلقون بها فى البحر ثانية ولكنهم عدلوا عن ردهاللبحر منذ أتى السادة من المدن يشترونها لمتاحفهم .

رفع فيسنت الحقائب فوق ظهره وأمسك فى يده الابريق الكبير الوردى الذى خضبه البحر وأخذ يهبط سلم الباخرة والناس من حوله يدفع ويجذب بعضهم بعضا هابطين صاعدين على سلم الباخرة هاتفين وهو يهتف معهم حتى وصل الى الرصيف وهناك اصطدم به حمال آخر كانت قدمه قد أمسكت فى

حبـــل المرسى فافلت الابريق من يده وهوى الى الارض ٠

وهكذا طوى التراب الفى سنة من الارض الكسيرة ٠ ثم ماذا ؟؟

منذ عشرة أعوام فقط كانت هـــذه الأوانى الخزفيـــة من آثار اليـــونان والفينيقيين والرومان لاتزال موجودة فى كهوف البيزا الضحلة أما اليوم فلم يتبق منها سوى بعض الأشياء الحديثة العديمة القيمة وأصبحت القيمة منها نادرة ٠ وقد نقد الامريـــكى بحارا فينيقيـــا مبلغ خمسمائة دولارا ثمنا لهذا الابريق بعد أن تحقق من المسئولين قيمتـــه الاثرية وكان من الطبيعى أن يغضب ولكنه كان رجلا متزنا وكان يعرف أن حمالا مثـــل فيسنت لن يكسب خمسمـــائة دولارا طوال حياته فاحترم الامر الواقع وكان مستعدا لأن ينسى مافقد ٠ ولكن فيسنت لم يرضه هذا ٠ كان يعرف تقدير الناس لهذه الأباريق والأوانى العديمة النفع وقد رأى خيبـــة الامل مرتسمة عـلى وجه الامريكى ٠ وكان فيسنت رجلا شريفـا فأراد أن يصلح ما أفسد ٠ تبع الامريكى الى فندقه ورجاه فى اعطائه اسمه وعنوانه ووعده برد الدين ، وأصبحت قصـاصة الورق ـ التى مزقت من مفكرة الامريكى وكتب عليها ابراهيم لنكولن سميث /٧٢ طريق هدسون ميلووكى وسكونســين أمريكا ـ أعز مايملك وأصبحت بالنسبة لفيسنت نهاية رحلته فى طريق بحثـــه الطويل ٠

وأعتقد أن فيسنت كان يرى فى أحلامه انه قد وصل أخيرا الى ميلووكى متـابطا الابريق الفينيقى وأخذ يتقبل بفرح وغبطة مديح الامريكى الذى كان يكيله له ٠

وكان فيسنت يعلم حق العلم أنه لن يملك أبدا المال الـــكافى لشراء الابريق ولكن ماذا يمنع من أن يجـــد ابريقا ؟ آخرون وجدوا أباريق ، مئات منهـــا ، حين كان صبيا فلم لايجد ابريقا هـــو الآخر ؟ ٠

لم تكن له أسرة فلم يستغرق وداعه لحياته فى برشـــلونة زمنـــا طويلا ٠ برشلونه المدينة الصاخبة حيث كان يحمل الحقائب لقاء كاس صغيرة من النبيذ فى حانة يملؤها الدخان وحجرة بغير نافذة يتخذها سقفا للباليه ٠ ولما باع أمتعته القليلة توفر لديه أجر المركب الى ايبيزا وقليل فوقها ، ومن مؤخرة المركب ألقى نظرة على المدينة فرآها تهبط الى البحر وعرف لأول مرة أن السنوات التى أمضاها هناك كانت له سجنا من صنع يديه فلم يرفع عينيه مرة عن الشوارع الضيقة نحو السموات الرحبة المترامية ٠

ومرة اخرى ـ كما كان يحدث وهـو صبى ـ صدح له البحر ٠

ولما عاد الى الجزر بدا يعد العدة للعمل الذى اختاره ٠ كان يعرف مـــكان آخر قطعة اثرية وجدت وأدرك ـ كما أدرك غيره من قبل ـ أن جميع الاماكن القريبة من الشاطىء قد جردت من كنوزها ٠

وتذكر ساندیك ابن النجار وهو من سانتا يولاليا ديل ـ ريو قد اشـــتهر بالسباحة تحت سطح الماء وكان قد وجد مدفعا فى قاع البحر ولكن هذه قصـــة أخرى ٠ فسافر اليه فيسنت فى سيارة عامة ليستشيره وكانت نصيحة ساندیك مختصرة ٠

ابتع لنفسك قناعا وزوجا من زعانف المطاط وجهازا يمدك بالاكسجين واخرج

الى عرض البحر ، فهناك في الجهات النائية لم تزل بعض البقاع الضحلة التي لا يزيد عمقها على قامة رجل أو ضعفها أو ثلاثة امثالها مجهولة وفي الكهوف هناك عند قاع البحر قد تجد بعض الكنوز ·

ولكن فيسنت ـ ككثيرين من أبناء الجزر ـ لم يكن يعرف السباحة فانفق مابقى من نقوده كما نصح سانديك في شراء جهاز الاكسجين وزعانف المطاط والقناع · وعاد على زورق البريد مانوليتو الى جزيرته فومنتيرا وهناك على الشاطىء نصب خيمته واحتال للحصول على طعامه وصب اهتمامه ـ شأن الرجل الذي ينشد هدفا معينا ـ في تعلم السباحة ·

كان قد ناهز الستين وكان هرما فالزمن يقسو على الرجال من أمثال فيسنت الا انه كان شابا في شوقه الى التعلم والخروج نحو أفق هدفه البعيد

وتعلم السباحة ، وتعلم الغطس بمعداته فكان يبدو كالضفدع أو كعقرب البحر في المناطق الضحلة حول شواطىء كالابوجول · وذهب بعيدا وذهب أبعد الى حيث تتغير المياه الى لون البنفسج حيث تبدأ الاعماق وكانت فترة تحدث فيها أكثر مما تحدث طول حياته ، فلم يكن ليستطيع بعد مرات الغطس الأولى أن يحتمل في صمت دهشته وعجبه لما رأى من جمال غير منتظر في أعماق البحر فحكى عن حدائق الأسماك النجمية المتعددة الألوان وعن الأسماك الوديعة ذات العيون الحشرية التي كانت تتابعه وعن أشعة الشمس التي تتحسس طريقها الى الكهوف الغامضة والصخور حكى كل ذلك للصيادين الذين كانوا يعملون فوق سطح الماء وكانت حكاياته منسوجة بالعجب والرهبة واقسم لهم أنه لم يعرف في حياته حرية كتلك التي عرف في قاع البحر ·

ـ ولكنك لا تستطيع التنفس هناك·

ـ المرء يتنفس بعينيه ومسامه ·

وقال انه لم يسمع قط موسيقى مثل موسيقى البحر ·

ـ ولكن لايوجد سوى الصمت تحت البحر ·

ـ ولكنه صمت صداح ـ انه كما لو

ارسلت عدة آلات موسيقية أنقى أنغامها نحو السموات ·

هذه احدى مزايا اللغة الاسبانية · كثيرا ما يتحدث الحاصد بلغة الشعر انها الطريقة التي تتجمع بها الكلمات ·

مضت أيام تلتها أسابيع وشهور ثم أعوام وفيسنت جاد في بحثه عن الاناء الذي اقتضى الشرف وجوده ليحل محل الاناء المكسور وكانت سعادته تزداد يوما عن يوم فكان كل يستقبل فرحة جديدة ومغامرة جديدة ولم تعد أيامه اسيرة مواعيد وساعات فبطريقة أو باخرى كان يجد ما يحتاج اليه : سمكة يشويها أو كأس نبيذ أو قطعة من الخبز أو علبة كبريت · أما بالنسبة للصيادين فقد

أصبح بحثه جزءا من حياتهم على الشاطىء وفى البحر وكان سخاؤهم فطريا ملبيا .

قص الصيادون على قصة فيسنت يوم هبت الرياح من افريقيا وارسلت أمواج البحر الخضراء العالية تجرى وتهدر فحصت الافق بحثا عن الزورق الصغير فلم أره والتفتت الى الاب بدرو كاهن سان فرناندو الذى أتى يشاركنا جلستنا وسألته .

ما رأيك يا أبى ؟ هل يجد فيسنت اناءه الخزفى ؟

فضم الرجل البدين أصابعه القصيرة وعيناه على الأفق هو الآخر وكان مخبؤنا يميل مع الريح فوق رءوسنا وقال دون اضطراب أو قلق :

اسمع يا بنى ان فيسنت وهب نعمة البحث . وليس من المهم أن يجد المرء شيئا ولكن المهم هو البحث نفسه . نعم البحث نفسه .

وفى العام الماضى كنت فى فومنتيرا فى يوم هاج البحر فيه فجأة ومزقت الرياح احشاءه فلفظ الزورق الصغير أما الرجل فلم ير ثانية .

كان البحر ثقيلا .

وفى قاع الزورق هجع ابريق فينيقى قديم نجا من أيدى البحر والسنين فهو موثق باحكام وقد غطته الاعشاب البحرية .

وطلب الى الاب بدرو والصياد صديقا فيسنت بوصفى أعرف الانجليزية أن أكتب الى ابراهيم لنكولن سميث فى ميلووكى وسكونسين بامريكا ففعلت وكتبت عدة مرات واخيرا لجأت الى رئيس المدينة .

لم يسمع احد بالرجل .

وربما ضاق الامريكى بالرجل العجوز الأحمق الذى كسر تحفته فاختلق اسما يتخلص به منه وربما جاء الرجل من ميلووكى . لاندرى .